لغة الحضارة

التطعيم والتكفيت

هما مترادفان بمعنى واحد . غير ان التطعيم يُطلق على كل تنزيل كتطعيم الخشب بالعاج والعظم والآبنوس ، وتطعيم النحاس بالفضة والذهب . بخلاف التكفيت فانه لم يرد الّا في المعادن . قال جمال الدين محمد بن علي بن نباتة : ومما كتب على طست مطعّم :

تشبهتُ بالغدران ، والروض حولها ، فاصبحت ملهى الناظر المتوسّم
وأنتُ بالتطعيم أشجار فضّة ، ومن احسن الاشجار كل مطعّم(١)

وقد وهم دوزي بظنّه ان التكفيت هو تغشية المعدن بصفيحة من معدن آخر اوفر قيمة plaqué[٢] . اي ان تُكسى مصنوعات الفضّة مثلًا بصفائح من الذهب . وهو المعروف اليوم بالتلبيس . والذي تحققناه ان التكفيت انما هو مدّ خيوط من معدن في آخر دونه في الثمن : incrustation ويقال لصانعه كفتيّ . قال ابن العفيف :

قُ كفتيّ اضاع صبابتي فيه الفؤاد ، وخالف اللوّاما
مدّ الشريط في الحديد ، فخلتهُ قمرًا يطرّز بالبروق غماما(٣)

ومثله قول الشهاب الحجازي :

بيّ كفتيّ سباني حسنه لا ارى من حبه لي مخرجا
مدّ تبرًا في حديد ، فحكى قمرًا طرّز بالبرق الدجى(٤)

---

١) كتاب الفصّ النباتي . خزانة باريس ٢٣٣٤ ، ص ١٩٦

٢) *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, p. 470

٣) غرة الصباح في وصف الوجوه الصباح لتقي الدين البدري f° 101 , Add. 23443 ، بريتش-وزيوم .

٤) كتاب جنة الولدان في الحسان من الغلمان ، ص ٢٣

وقبلها لمنصور بن القاضي الازدي الهروي:

والورد اصفره يلوح ، كأنه اقداح تبر كُفِّفت بزبرجد [1]

وكان يُقال لمثل هذه الاشغال « الكفت » قال ابن فضل الله في المسالك: « وبمصر من محاسن الاشياء ولطائف الصنائع ما تكفي شهرته . ومن الاسلحة والقماش والزركش والمصوغ والكفت وغير ذلك ما لا يكاد يعدّ تفردها به»[2] ويقال للموضع الذي تباع فيه « سوق الكفت او الكفتيين »[3] . ولما وقع الحريق بدمشق سنة ٧٤٠ (١٣٣٩ م) انشأ ابن الوردي مقالة في معناه قال فيها: « فوا لسوقِ الكفت ما كفَّت النار عنه لساناً . »[4]

وكان بمصر في دولة المماليك سوق من اعظم اسواق الكفت . وصفها المقريزي اتمّ وصف ، وعدّد بعض مصنوعاتها ، وقال:

«سوق الكفتيين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعّم به اواني النحاس من الذهب والفضة . وكان لهذا الصنف من الاعمال بديار مصر رواج عظيم . وللناس في النحاس المكفّت رغبة عظيمة . ادر كنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه واصف لكثرته . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفّت . ولا بد ان يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والآبنوس . او من خشب مدهون . وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . وعدة الدست سبع قطع بعضها اصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الاردب من القمح . وطول الاكفات التي تنشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع في عرض اصبعين . ومثل ذلك دست اطباق عدتها سبعة بعضها في جوف بعض . وفتح اكبرها نحو الذراعين واكثر . وغير ذلك من المناير والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والابريق والمبخرة . فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهباً . وكانت العروس من بنات الامراء والوزراء او اعيان الكتاب او اماثل التجار تجهز في شورتها عند بنآء الزوج عليها سبع دكك . دكة من فضة . ودكة من كفت . ودكة من نحاس ابيض . ودكة من خشب مدهون . ودكة من صيني . ودكة من بلور . ودكة من كداهي وهو آلات من ورق مدهون تحمل من الصين ادر كنا منها في الدور شيئاً كثيراً . وقد عدم هذا الصنف من مصر الّا شيئاً يسيراً . . . وقد قل استعمال الناس في زمننا هذا (١٣٦٥ - ١٩٤٦) للنحاس المكفت وعزّ وجوده . فان قوماً لهم عدة

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ١٩٠

٢) حسن المحاضرة للسيوطي (طبعة مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ ه) ٢ : ١٩٨

٣) تاريخ البدر في اوصاف اهل العصر للبيني . بريتش موزيوم Add. 22360, f° 39 °

٤) تذكرة النبيه لشرف الدين بن حبيب الحلبي . بريتش موزيوم Add. 7335, f° 154

سنين قد قصدوا لشراء ما يباع منه وتتحية الكفت عنه طلباً للفائدة. وبقي هذا السوق الى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة. »[1]

وكان بعض الوزراء والاغنياء يغالون ويتباهون في جمع مصنوعات الكفت. ولما نُكب الصاحب علاء الدين بن زنبور، وُجد له من النحاس الاصفر المكفّت والنحاس الابيض نحو من اربعين الف قطعة[2]. وكان الكفت يتناول كل ما يعمل من نحاس او حديد كالسيوف والاسلحة والمناطق والحياصات حتى المهاميز. ولما ذكر المقريزي جيوش الدولة التركية وزيّها وعراندها، قال: « كان معظم العسكر لا يكفت مهازه بالذهب. »[3]

وقد عرفت صناعة التكفيت في سورية من قبل دخول العرب اليها. والسوريون هم الذين نقلوها الى الغرب. وكان منهم في القرن الثالث للميلاد صائغ من مرعش يسمى قسطنطين Constantin de Germanicia يشتغل في مدينة ليون بتنزيل الذهب والفضة في المعادن[4]. وقد اشتهرت دمشق في كل وقت بالتخصص والتفنن بهذه الصناعة. وعنها أُخذت وشاعت في اروبة. ولذلك سميت فيها باسمها damasquinage وكانت سوقها بدمشق، قبل الحرب، على اشدّ الرواج، وتحمل منها الطرائف والتحف الى جميع الاقطار. ولا تزال حاضرة الامويين الى اليوم معدن هذا الفنّ، وصنّاعه فيها كلهم من النصارى واليهود.

١) المقفى للمقريزي (مطبعة النيل) ٣: ١٧٠-١٧١

٢) تاريخ مصر لابن اياس، ص ١٦٨

٣) المقفى للمقريزي ٣: ٢٥٢

٤) L. Bréhier, *Les origines des rapports entre la France et la Syrie* (in *Congrès Français de la Syrie*) Fasc. II. p. 17